

الشعر الجاهلي

وقضايًا المجتمع العربي القديم

محمد نبيل طريفي

١ - يقول محمد بن سلام الجمحي في مقدمه كتابه طبقات فحول الشعراء في معرض حديثه عن أهمية الشعر الجاهلي ، وهو يبرز رأيه في نقد الشعر - وهو من أهم الآراء - ما يلي (١) :

« وكان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم ، ومنتهى حكمهم ، به يأخذون ، واليه يصيرون » .

والجاهلية هنا تعني قرناً من الزمان ، وهناك رأي قديم يعتبرها من مئة الى مئة وخمسين سنة قبل الاسلام . ونحن نعلم أن العرب لم يكتبوا الشعر ، وإنما حفظوه ، فذاكرتهم لم تستطع الاستيعاب لأكثر من هذه المدة . وكانت تحفظ وتضيف اليه شيئاً من الجديد ، وتنسى شيئاً من القديم .

وكلمة الديوان في فولة ابن سلام معناها في الأصل : مجتمع الصحف أو مجموعها ، أي الكتاب . وهذا يعني أن الشعر هو كتاب الجاهليين ، غير مدون . وتضيف أنه يقوم مقام كتاب العلم والأدب عندهم . وعبارة حكمهم في كلام ابن سلام تعني حكمتهم . والحكمة هي العلم والمعرفة ، أي الثقافة بمعناها الواسع في عرفنا في العصر الحاضر ، ومنه قوله تعالى في كتابه العزيز (٢) : « يا يحيى ، خذ الكتاب بقوة ، وآتيناه الحكم صبياً » .

ويقول أبو علي المرزوقي في مقدمة كتابه شرح ديوان الحماسة لأبي تمام مبرزاً أثر الشعر في حياة الجاهليين وقيمتهم عندهم : « إذا كان الله عز وجل ، قد أقامه للعرب مقام الكتب لغيرها من الأمم ، فهو مستودع آدابها ، ومستحفظ أنسابها ، ونظام فخارها يوم النِّفَار ، وديوان حجاجها عند الخصام » .

وحقاً كان الشعر ديوان الجاهليين ، كأنه بمجموعه كتاب عظيم ، محفوظ في الصدور ،

عبر فيه الجاهليون عن أفكارهم وعواطفهم، وصوروا فيه آمالهم ومطامحهم ، وسجلوا في ثناياه كل تقاليدهم وأخلاقهم وعاداتهم وغيرها من مظاهر الحياة عندهم . وكانت أجيال الجاهليين تحفظ هذا الشعر وترويه جيلاً بعد جيل ، وكانها تقرأه في كتاب مكتوب . ولقد كان للأمم الغابرة من أصحاب الحضارات القديمة كتبهم المدونة في الدين والأخلاق والأدب والفلسفة وغيرها من زبد الفكر يقرأونها ويتأدبون بها ويتشققون . ولم يكن للجاهليين شيء من أمثال هذه الكتب . ولكن كان لديهم هذا الشعر ، وكانوا يروونه ويتأدبون به ويتشققون ، وهكذا كان الجاهليون يجدون في قصائد شعرائهم المتعة الفنية ومادة الثقافة بما تضمنت من ذكر المآثر والمفاخر والمشاعر الانسانية في مواقف الانسان الجاهلي المختلفة في الحياة ، والتفني بكل ذلك في تعبير فني جميل يستمد جماله من ثراء الفن الشعري في لغته ومعانيه وأوزانه وقوافيه المنقومة . وعلى هذا يمكننا أن نختصر ونقول : ان الشعر الجاهلي هو مادة الفن والتربية والثقافة في وقت واحد لأجيال الجاهليين . وهذا هو معنى قول عمر بن الخطاب (٣) : « كان الشعر علم قوم ، لم يكن لهم علم أصح منه » . ويشير عمر في قوله هذا الى الشعر الجاهلي وأصحابه أهل الجاهلية . ولقد صدق عمر بن الخطاب وهو العارف بالشعر ، ومن بعده ابن سلام وهو العالم بالشعر ، لقد صدقا في كلامهما وأدركا قيمة الشعر الجاهلي ومكانته في حياة الجاهليين ، وعرفا أنه كان مجمع الثقافة عندهم ووسيلة انتشارها بينهم ومدعاة استمرارها في البقاء والحياة مع أجيالهم المتعاقبة . وفي الواقع كانت قصائد الشعر في الجاهلية تسير بين القبائل ، وتنتشر سريعاً في كل أنحاء الجزيرة العربية فيتناقلها الناس وينشدونها في مجالسهم ومحافلهم العامة في الأندية (أندية القبائل) ، وفي الأسواق العامة (سوق عكاظ) ، وكذا في مواسم الحج ، فكانت هذه القصائد لذلك مثل الصحف والمجلات وكتب الثقافة في عصرنا الحاضر تنتشر بين الناس فيطلع عليها الجميع .

٢ - أما مضمون هذا الشعر ، فلقد كان الشعر الجاهلي بمجموعه يدور على صور ومظاهر مختلفة من أحوال الجاهليين الفكرية والاجتماعية ، كما أشرنا آنفاً . وكانت للشعراء الجاهليين أشكال مختلفة ، أو طرق للتعبير عن هذه الصور والمظاهر في الشعر ، ونريد بذلك أغراض الشعر أو موضوعاته العامة ، لأن هذا الشعر قد تفرق في أغراض يختلف بعضها عن بعض في معانيها وغاياتها، ثم تجتمع هذه المعاني والغايات في نهاية الأمر لتلقت في غرض واحد أكبر لم يكن مقصوداً لذاته ، وهو التعبير عن أفكار الجاهليين وعواطفهم كما قلنا ، وبيان مواقفهم الخاصة من أحداث الحياة المختلفة ، وكل هذا يعني تصوير مظاهر وجوانب من حياة الجاهليين في خطوطها العامة . وهذا هو الغرض الأكبر من الشعر الجاهلي ، وهو كامن وراء الأغراض الظاهرة الأخرى . وتبدو لنا هذه الأغراض الظاهرة في الوهلة الأولى وكأنها هي الغاية في قصائد الشعر الجاهلي ، لكننا حين نتروى وننعم النظر فيها ونقيس الأمور والمسائل ونزمنها بالنتائج التي تنتهي اليها نجد أن الحق غير ذلك ، وأن هذه الأغراض المختلفة الظاهرة ما هي في حقيقة الأمر سوى سبل ووسائل الى غاية أخرى أكبر وأوسع وهي : تصوير مظاهر وجوانب من حياة الجاهليين كما قلنا .

فالشعر الجاهلي حين يعبر عن الفضائل الانسانية التي يستحبها الانسان الجاهلي ويعبر عن الفرح والرضا بهذه الفضائل يكون مديحاً . وحين يشير هذا الشعر الى المثالب والمعايب التي يستقبحها ويكرهها الانسان الجاهلي وينفر منها يكون الغرض هجاء . ويكون الشعر مرثي حين يعبر عن الحزن والأسف على موت الأحبة أو فقدان الكفاءات الانسانية في شخص الأكفاء من الرجال ، ويكون هذا الشعر فخراً حين يتباهى بمحاسن النفس وفضائلها . ويكون وصفاً في ابداء الاعجاب بالأشياء واطهار الفرح بها والرغبة فيها أو الرهبة والخوف منها . وقصارى القول : ان الشعر في اخر الامر تعبير عن مشاعر الانسان الجاهلي ومواقفه في الوجود مهما اختلفت الأسماء التي تطلق على أغراضه وفنونه أو طرائقه في التعبير .

٣ - ولهذه النتيجة وجه آخر من المعنى يبين لنا أن شعراء الجاهلية قد اهتموا بحياة الانسان الجاهلي ، وعرضوا في أشعارهم لقضايا هذا الانسان ومشاكله في الحياة ، في السعادة والحزن ، وفي أيام الرخاء والنعيم ، وكذلك في الأزمات وأيام الشدة . في كل ذلك كان الشعراء السنة ينطقون بمشاعر الجماعة ، فالشاعر يتأثر بما حوله فتجيش نفسه بمشاعر الناس جميعاً فتصوغ هذه المشاعر قصائد ينشدها جماعته ، فتجد هذه الجماعة مشاعرها مصوغة في شعر الشاعر لأنه هو اللسان الناطق . ويجدر بنا بعد هذا العرض أن نمثل لاهتمام شعراء الجاهلية ببعض الأمثلة . ونورد بعض شواهد الشعراء على تعرضهم لقضايا الانسان الجاهلي التي كانت تشغله فتسعه أو تؤلمه في الحياة .

ومن هذه القضايا التي عرض لها شعراء الجاهلية وعالجوها في قصائدهم : « أزمة الجوع في المجتمع الجاهلي » . فمن المعروف لدينا أن البيئة الجاهلية الطبيعية - وهي بيئة البادية - شحيحة بالخير ، ولهذا كثيراً ما تنزل بها نازلة الجذب والقحط لانحباس المطر وجفاف الماء والمرعى ، وفي هذه الحال تقفر البادية ويموت فيها كل شيء ويجوع الناس ويشتد عليهم الزمان ، هنا في مثل هذه الأزمة العصبية نلاحظ حالة عجيبة في المجتمع الجاهلي تثير الاستغراب والاعجاب معاً . نرى الانسان الجاهلي لا يسارع الى الاستئثار بما لديه من مادة الخير ، ولا يحاول الاستغلال والاستفادة من الفرصة السانحة ، بل نرى الناس يسارعون الى التباري في الجود بما لديهم واخراج الخير الذي يملكونه ويتباهون في اطعام الفقراء والمحتاجين وايوائهم ، ويفخرون بذلك فخراً عريضاً ولا سيما الأغنياء أصحاب اليسار منهم . ونجد شواهد كثيرة في الشعر الجاهلي تصف هذه المواقف في أغراض مختلفة من أغراض الشعر الجاهلي ، في الفخر أو في المديح وحتى في المراثي . من هذه الشواهد قول طرفة بن العبد البكري في مجال الفخر بأهله وقبيلته في قصيدته الرائية (٤) :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى	لا ترى الأدب فينا ينتقى
بجفانٍ تعترى نادينا	من سديف حين هاج الصنبر
كالجوابي لا تني مترعة	لقرى الأضياف أو للمعتصر
ثم لا يخزن فينا لعمها	إنما يخزن لحم المدخر

ففي هذه الأبيات يفخر الشاعر طرفة بوجود قومه ، فيذكر أنهم يدعون الناس الى
المآذب دعوة الجفلى أيام الجوع في الشتاء ، والشتاء زمن الشدة والضيق في البادية دائماً ،
يشدد فيه البرد ويعزّ القوت فتجتمع على الناس شدة الجوع وشدة البرد ، وتكون أزمة
تحطم الفقراء منهم خاصة ، ولا سيما الأرامل والأيتام .

وشاهد آخر من الشعر الجاهلي نستقيه من معلقة لبيد بن ربيعة العامري ، يقول
فيها مفتخراً بوجوده ورعايته للجيران المحتاجين ، ولا سيما النساء ذوات الأطفال (٥) :

وجزور أيسار دعوتٍ لحتفها بمفائق متشابهه أعلامها
أدعو بهن لعافر أو مطفل بذلت لجيران الجميع لحامها
فالضيف والجار الغريب كأنما هبطا تبالة مغصباً أهضامها

يفخر الشاعر لبيد هنا بالمقامرة ولعب الميسر على الطريقة الجاهلية ، وسر الفخر في
ذلك هو أن اللحم الذي يفوز به الياسر يبذل للفقراء والمحتاجين من الناس ولأبناء السبيل ،
مثل الضيف والجار الغريب ، فيطهى هذا اللحم في مكانه ليأكل منه الجميع ، وعار
عظيم على الياسر أن يأخذ هذا اللحم لنفسه ويحمله الى منزله . وهذا ضرب من جود
أهل الجاهلية يفخرون به كما رأينا لا سيما في أوقات الشدة والضيق أيام الشتاء ، أو
في سنوات الجذب .

وقد يأتي التعبير الشعري عن قضية الجوع في المجتمع الجاهلي بصورة أخرى ، في غرض
آخر من أغراض الشعر كالمديح مثلاً ، ذلك أن الشعراء يلاحظون فضل الأجواد الذين
يسارعون الى نجدة الناس في الأزمات ، ويدفعون عنهم غائلة الجوع فيعجبهم هذا
الفعل الجميل ، ويشير وجدانهم فينهضون الى مدح هؤلاء الأجواد للتعبير عن هذا الاعجاب .
ويتصف المدح في مثل هذه الحال بالصدق وحرارة الاعجاب حين وجود الممدوح بأمواله
على الفقراء المحرومين ، فيشفي جراحهم التي حفرتها آلام الجوع والحرمان أيام الشدة
والضيق ، أو يمد يد العون والمساعدة للأرامل والأيتام الذين يفقدون آباءهم ورجالهم في
الفارات والحروب الدائمة ، مثلما نرى في مدائح الشاعر زهير للسيد الجواد هرم بن
سنان المري ، في مثل قوله من قصيدة له (٦) :

له في الذاهبين أروم صدق وكان لكل ذي حسب أروم
وعود قومه هرم عليه ومن عاداته الخلق الكريم
كما قد كان عودهم أبوه اذا أزمّت بهم سنة أزوم
عظيمة مغرم أن يحملوها تهم الناس أو أمر عظيم
كذلك خيمهم ولكل قوم اذا مستهم الضراء خيم

في هذه الأبيات يبدو الشاعر زهير معجباً بالرجل الجواد هرم بن سنان ، مندفعاً في مدحه ومدح قومه لتجدتهم الناس المحتاجين في السنة الازوم ، وهي سنة الجذب والجوع . وأخبار الجاهلية والروايات التي نجدها في كتب الشعر واللغة القديمة تثبت صدق زهير في إعجابه وتقديره لهذه الشخصية الانسانية، اذ تذكر هذه الأخبار والروايات جود هرم وأهله وكرمهم حتى ضرب به المثل في الجود ، فقيـل : أجواد العرب ثلاثة : حاتم طيء ، وهرم بن سنان ، وكعب بن مامة اليايدي . ومدلول هذا المثل بيّن ، وهو أن تقدير هذا الرجل الجواد قد تغلغل في ضمير الجاهليين ، فضربوا به المثل تعبيراً عن تقديرهم لموقفه النبيل وكفاءته الانسانية في نفع مجتمعه ، ورد كارثة الجوع عن أهله . وكل هذه الصور الشعرية التي رايناها في الفخر في أبيات طرفة وفي أبيات لبـيد ، وفي المدح في أبيات زهير تبدو صوراً قوية معبرة مؤثرة ، وهي تحقق بقوة التعبير والتأثير الفني الهدف الذي قصده هؤلاء الشعراء ، وتصل بنا الى الغاية الجمالية التي أرادوا الوصول اليها ، وهي التأثير في نفس الانسان الجاهلي ، كل انسان والأخذيـبـده نتيجة هذا التأثير في طريق الخير الى الأفضل والأجمل . فهذا الفخر في أبيات طرفة ولبيد ليس الغاية منه التعاطف والتعالي ، وهذا المدح في أبيات زهير ليس الغاية منه تعظيم انسان موسر ، أو تقديس سيد كريم . فهذه غاية قريبة لا تعني شيئاً ولا تغني كثيراً في مجال الفن الأصـيـل ، بل تغيب وتنسى تماماً عند انقضاء الحاجة الداعية لها والظروف الملائمة . أما الغاية البعيدة على المدى البعيد ، فهي اهتمام شعراء الجاهلية بمشكلة من مشكلات الانسان الجاهلي والتعبير عنها وإثارة عواطف الناس وتنبيه أذهانهم الى المشكلة في نتيجة هذه الآثار . والمقصود من ذلك هو تلمس السبيل للوصول الى حل لها حسب طريقتهم الخاصة في بيئتهم الخاصة وفي المرحلة التاريخية الخاصة التي كانوا يعيشون فيها . فالبيئة الجاهلية ليست بيئة قوانين وأنظمة مسنونة نتيجة تطور حضاري فكري ، وإنما هي بيئة أعراف وتقاليـد أثبتتها الأيام والتجارب في هذه البيئة البدوية ، فما هذا الفخر ، وما هذا المدح في الشواهد التي عرضناها من الشعر الا دعوة للانسان الجاهلي للعطاء والجود بما يملك في الأزمات . وهذا الجود ما هو الا نوع من أنواع التعاون ، أو طريقة خاصة اهتدى اليها الجاهليون بالتجربة الطويلة للخلاص من كارثة الجوع في بيئة البادية الشحيحة بالخير ، انه اقتراح لحل هذه الأزمة بحسب تفكيرهم وطريقتهم ، أو لتخفيف أثرها السيئ في مجتمعهم . وقد نزيد ونذهب أبعد من ذلك ونقول : ان فخر طرفة ولبيد ومدح زهير وأشعار غيرهم من شعراء الجاهلية في هذا الموضوع ما هي الا مشاركة شعرية ، وبتعبير آخر أعم ، نقول : انها مشاركة فنية في ايجاد حل لأزمة الجوع في البيئة الجاهلية ، انها في آخر الأمر صيحة أزلية لكل انسان في كل زمان لفعل الخير بطريقة أو بأخرى وتحقيق السعادة لبني الانسان والتخفيف من الألم في الحياة ، وهذا هو السعي للأفضل والأجمل ، وتلك هي الغاية البعيدة التي تسعى العلوم والفنون الجميلة سعياً حثيثاً لبلوغها ، وهي سعادة الانسان في الأرض . وقديماً قال الشاعر الجاهلي عبد قيس بن خُفاف ، وهو يوصي ابنه جنبلاً بلزوم خصال الخير في قصيدة له (٧) :

واذا تشاجر في فؤادك مرة أمران فاعنـمـد للأعـفـ الأجمـل

٤ - وعلى هذه الطريقة في البحث والنظر في أعماق الشعر الجاهلي يمكن لنا أن ننظر في قضية أخرى من قضايا المجتمع الجاهلي، هي قضية الحرب والسلام ، واستقراء قصائد الشعر الجاهلي تثبت لنا مدى اهتمام شعراء الجاهلية بهذه القضية حسب عاداتهم في الاهتمام بقضاياهم . فلقد اضطر الجاهليون الى الحرب كثيراً للدفاع عن حرية الانسان وحقه في الحياة ، وحفاظاً على موارد العيش من الأموال (الابل) والمياه والمراعي ، وخاضوا في سبيل ذلك حروباً طويلة جرت عليهم الآلام والنكبات ، وكان للشعراء فيها أثر بارز وظاهر ، وهو قصائد عديدة طويلة في تصوير الحرب والغارات، والتغني بالشجاعة والانتصار وتمجيد قوة الأبطال والفرسان . والحرب كرهية ذميمة فيها هلاك الانسان ودمار حياته، فلذلك كرهها الجاهليون ونفروا منها ، ولم يسرعوا فيها الا مضطرين مكرهين . ونهض بعض شعرائهم يعبرون عن هذا الشعور في قصائدهم بزم الحرب والتنفير من أهوالها ودعوة الناس الى السكينة والسلام ومدح دعاة السلام والاشادة بفعلهم وتمظيم شأنهم . وكما استعان الجاهليون بوسيلة الجود لمعالجة أزمة الجوع ، اهتموا كذلك الى وسيلة جميلة استعانوا بها للإصلاح بين الناس واقرار السلم فابتدعوا (الدية، والحمالة) ، فالدية: هي تعويض أهل القتل أو الجريح بعدد من الابل تسوقها لهم أسرة القاتل أو قبيلته ، وهي بادرة للتفاهم ، وخطوة أولى في سبيل الصلح . والحمالة : هي أن يتحمل سيد من السادات ديات القتلى وفداء الأسرى في حرب من الحروب يعينه في ذلك رهطه أو قومه ومن يستعينون به من أجواد الناس . ومن أشهر قصائد الدعوة الى السلم وذم الحرب معلقة زهير بن أبي سلمى ، وقد حيا فيها الشاعر بطلين من أبطال السلام هما : هرم بن سنان ، وابن عمه الحارث بن عوف المزياني ، وخلد ذكرهما في مدح فخم نبيل ينسب عن اعجابه العظيم بفعلهما العظيم في وقف الحرب المشؤومة والمعروفة بحرب داحس والغبراء بين قبائل عبس وذبيان وتحملهما ديات القتلى من الفريقين ، ومن أبيات المعلقة في المدح قوله في خطاب الرجلين (٨) :

تداركتما عبساً وذبيان بعدما	تفانوا ودقوا بينهم عطر مَنشَم
وقد قلتما : إن ندرك السلم واسعاً	بمال ومعروف من القول نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن	بعيدين فيها من عقوق ومأثم
عظيمين في عليا معدّ هديتُما	ومن يستبح كنزاً من المجد يُعظم
فأصبح يجري فيهم من تلادكم	مغانم شتى من إفال المزنم
تعفى الكلوم بالمئين فأصبحت	يتجمها من ليس فيها بمجرم
ينجمها قوم لقوم غرامة	ولم ينهريقوا بينهم مِلء محجم

يقول الشاعر : ان هذين الرجلين العظيمين أدركا السلم بالحال والمعروف فمحييت الجراحات (آلام الحرب) بالمئين من الابل ، أي سقطت دماء القتلى بالديات ، وقد تحملها هذان الرجلان كرمًا وحبًا بالسلم من غير أن يأتيا بجرم ، أو يشاركا في إراقة الدم في

الحرب ، وهذه هي مكرمة الحماله التي أشرنا اليها ، والتي ابتدعها الجاهليون لتفادي الحرب . وهذه عملية اقرار السلام . وقد اهتدى الجاهليون الى هذه الأعراف والتقاليد بالتجربة والممارسة الطويلة في الحياة ، وفيها نفع وخير كثير للمجتمع ، لأنها كانت بالقياس الى الجاهليين كالقوانين التي تسنها الدولة لتنظيم المجتمع وحمايته في البلاد التي يسود فيها السلطان والنظام . وقد اعتبر الجاهليون هذا التعاون بين الناس في الازمات واسهام الموسرين منهم في غوث الفقراء والمشاركة في نشر الأمن والسلام وغيرها من الأعراف الجميلة ، اعتبر الجاهليون كل هذا حقاً لازماً لا بد من الوفاء به كالقانون الذي يلزم الجميع قبوله وتنفيذه ، واستعملوا في الدلالة عليه والتعبير عنه كلمة الحق . فمن قبل الحق وسعى في الخير نال جزاء سعيه مدحاً وثناء وفخراً ، وهذا نوع من مكافأة المحسن على احسانه ، وهو تقدير اجتماعي . ومن أبى وزاغ عن الحق لزمه الذم والهجاء ، وهذا نوع من معاقبة المسيء على اساءته ، وهو اكراه وقسر اجتماعي . وقد عبر الشعراء حسب عاداتهم عن هذا الموقف والمعاني في قصائدهم في الأعراض المختلفة ، واستعملوا في التعبير كلمة الحق ، وهو استعمال له دلالة خاصة . من شواهد ذلك قول ربيعة بن مقروم الضبي في مفضلية له في الفخر بقومه (٩) :

وقومي فان أنت كذبتني بقولي فاسأل بقومي عليما
أليسوا الذين إذا أزمه ألت على الناس تنسي الخلوما
يهينون في الحق أموالهم إذا اللزبات التحين المسيما

أي ينفقون أموالهم في الحقوق التي تعترهم وتنزل بهم من إطعام الجائعين وقرى الأضياف واعطاء المحتاجين ودية القتلى وغير ذلك . وقد خص الشاعر أداء الحق هذا في الأزمات لأن أدائه حينئذ يكون أجدي للفقراء والمحتاجين . ولتأكيد هذه الفكرة والدلالة على أهميتها في أذهان الجاهليين نسوق شاهداً آخر في المعنى نفسه ، وهو أبيات لمعاوية بن مالك ، من فرسان بني عامر وساداتهم ، هو المعروف بمعوذ الحكماء ، قال في مفضلية له (١٠) :

بل لا نقول إذا تبوأ جيرة إن المحلة شيعها مكدود
أذ بعضهم يحمي مراصد بيته عن جاره وسيلنا مورود
قالت سميّة : قد غويت بأن رأيت حقاً تناوب مالنا ووفود
غيّ لعمرك لا أزال أعوده ما دام مال عندنا موجود

يريد الشاعر أن محلته مفتوحة غير ممنوعة على الجيرة المحتاجين ، وأن أموالهم تذهب في أداء الحقوق وعطاء الوافدين من طلاب الخير ، وهذا ضلال في نظر امرأته سميّة التي تلومه على البذل والعطاء مخافة الفقر ، ولكنه ضلال في سبيل الحق في نظره ، يؤدي الى الخير فهو لذلك باق على هذا الضلال ، يعطي ويمنح أصحاب الحاجة ما دام عنده مال .

فهذا المال مشترك عندهم ، وفيه حق للجميع يأخذ منه كل محتاج فهو مرصود في سبيل الخير والصلاح . وقد عبر عن هذا المفهوم دريد بن الصمة ، وهو من سادات الجاهلية وفرسانهم عن هذا الاشتراك في المال في قوله من مقطوعة اختارها ابو تمام في حماسه الصغرى (الوحشيات) في باب السماحة والاضياف (١١) :

وان تسأل الأقوام عني فأنني مشترك مالي فدونك فاسالي
وما ان كسبت المال الا لبذله لطارق ليل أو لعان مكبل

يفخر دريد الشاعر الفارس بجوده واعتبار ماله مشتركاً بين المحتاجين ، فهو لم يجمع هذا المال الا لبذله في وجوه الخير ، ومن هذه الوجوه استقباله طارق الليل ، وهو المسافر الغريب في الصحراء يطرق الناس في الليل طلباً للمطعم والمأوى ، ومن وجوه الخير كذلك افتدائه الاسير المشدود بالقيود واطلاق سراحه لينعم بالحرية والحياة .

٥ - ويمكن لنا على هذه الطريقة من البحث والنظر أن نستعرض وجهاً آخر من وجوه اهتمام شعراء الجاهلية بقضايا الانسان في مجتمعاتهم . ولننظر الآن في مجال الأخلاق . وقراءة للشعر الجاهلي تظهر لنا اهتمام هؤلاء الشعراء بالأخلاق وتهذيب النفس في كل غرض من أغراض الشعر المعروفة حتى المراثي . ونختار شاهداً من المراثي ، وهو أبيات لرقيبة الجرمي في أخيه رفاعة ، وهي من اختيار أبي تمام في باب المراثي في حماسه ، قال رقيبة (١٢) :

أقول وفي الأكفان أبيض ماجد كفن الأراك وجهه حين وسما
أحقاً عباد الله أن لست رائياً رفاعة بعد اليوم الا توهما
فأقسم ما جشمتنه من ملمة تؤد كرام القوم الا تجشما
ولا قلت: مهلاً وهو غضبان قد غلا من الغيظ وسط القوم الا تبسما

يعبر الشاعر في هذه الأبيات عن شجوه لفراق أخيه طول الدهر بعد أن خطفه الموت في ريعان الشباب كفن الأراك الرطيب ، ويصوغ الشاعر تعبيره في تساؤل حائر لهيف ينم عن الحسرة واللهفة وهو يتفجع خاصة على فضائل أخيه وشماله الحسنة التي طواها الموت . هذا هو المعنى في الأبيات ، لكننا نلمح وراء هذا المعنى الحزين شيئاً إنسانياً آخر أكبر وأعمق ، وهو الاهتمام بالأخلاق ومعالجة نزوات النفس ، فالشاعر يبكي في أخيه ضياع الفضائل والكفاءات الإنسانية ، يبكي فيه نهضته لاغاة الملهوف في الملمات التي تنزل به في الحياة ، ويبكي فيه تبسمه وكظمه للغیظ في ساعة الغضب ، وكل ذلك من مكارم الأخلاق ، وكان الشاعر في رثائه يحجب الى الناس هذه الأخلاق ويغريهم بها في تفجعه على ضياعها ، كما جاء في الكتاب العزيز (١٣) : « الذين ينفقون في السراء والضراء ، والكاظمين الغیظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » .

والشاعر الجاهلي يبلغ بذلك غاية فنية هي تهذيب النفس واصلاحها ، وتلك هي الغاية المقصودة في التربية والثقافة . نرى الشاعر الجاهلي يدعو اليها أهل مجتمعه في أحسن صورة شعرية . ومعظم المراثي الجاهلية تدور على هذه الغاية ، بمعنى أنها تأسف وتفجع على ضياع الفضائل والكفاءات الانسانية بموت أكفاء الرجال .

٦ - وقصارى القول بعد هذا العرض الوجيز لاهتمام شعراء الجاهلية بقضايا الانسان في عصرهم ، وما خلفوه من تراث في هذا السبيل : ان هذا التراث القديم من الشعر يبدو لنا الآن قديماً وجديداً . فهو قديم لأنه تراث تفصل بيننا وبين أصحابه أحقاب وقرون ، وهو مع ذلك جديد لأن معانيه وأغراضه وأهدافه الفنية والفكرية ما زالت معروفة ومطروحة على الفكر الانساني في أيامنا الحاضرة ، ولعل هذا هو السر الذي جعلنا نقبل على دراسة هذا التراث القديم ، فنحن نستشف منه معاناة الانسان في الحياة وصراعه مع ظروفه المختلفة ، وسعيه من أجل تحقيق حريته وسعادته في حياة أفضل . ونستطيع أن نقول أخيراً : ان هذا التراث القديم يحمل في ثناياه خيراً كثيراً وفيضاً غزيراً من المعاني الانسانية ، فهو لذلك سيحتفظ دائماً بقيمته ، ويحتل مكانته بحق في التراث الانساني لخدمة قضية الانسان .

محمد نبيل طريفي
دبلوم الدراسات العليا في
الأدب الجاهلي والمخضرم والاسلامي

★ ★ ★

□ الحواشي :

- ١ - طبقات فحول الشعراء ، تحقيق شاكر : ٢٤ .
- ٢ - سورة مريم ، الآية : ٢ .
- ٣ - طبقات فحول الشعراء : ٢٤ .
- ٤ - ديوان طرفة ، دار بيروت : ٥٥ - ٥٦ .
- ٥ - ديوان لبید ، دار صادر : ١٧٨ .
- ٦ - ديوان زهير بن أبي سلمى ، صنعة ثعلب ، تحقيق د. قبادة : ١٥٤ - ١٥٦ .
- ٧ - المفضليات ، تحقيق شاكر وهارون : ٣٨٥ .
- ٨ - ديوان زهير ، صنعة ثعلب ، تحقيق د. قبادة : ٢٤ - ٢٦ .
- ٩ - المفضليات ، تحقيق شاكر وهارون : ١٨٣ .
- ١٠ - المفضليات ، تحقيق شاكر وهارون : ٣٥٦ .
- ١١ - الوحشيات ، تحقيق الميمني وشاكر : ٢٧٣ ، ديوانه جمع البقاعي : ٩٦ .
- ١٢ - الحماسة بشرح التبريزي : ٢١/٣ - ٢٢ .
- ١٣ - سورة آل عمران : ١٣٤ .

★ ★ ★